داود بن سليمان

ابن عبد الملك بن مروان

فاتح حصن المرأة ومحاصر القسطنطينية

بقلم اللواء الركن محمود شيت خطاب
عضو المجمع العلمي العراقي - بغداد



العدد ١

مجلة شهرية ثقافية مصورة
تصدر عن المملكة العربية السعودية



داود بن سليمان

ابن عبد الملك بن مروان

فاتح حصن المرأة ومحاصر القسطنطينية

بقلم اللواء الركن محمود شيت خطاب
عضو المجمع العلمي العراقي - بغداد

نسبه وأيامه الأولى

هو داوود بن سليمان بن عبد الملك بن مَروان بن الحَكَم بن أبي العاص بن أُميَّة بن عبد شَمْس بن عبد مناف بن قُصَيّ القُرَشِيّ الأُمَوِيّ [٢].

أبوه : أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ابن مَروان .

وأُمّه : من أمهات الأولاد [٣] ، ويريدون بتعبير أمّهات الأولاد : الجواري والإماء اللّواتي ولدن لمواليهنّ ذُكراناً .

تربّى تربية أبناء الخلفاء ، فوالده وجَدُّه عبد الملك بن مروان وجَدّ أبيه مروان بن الحكم خلفاء ، فلا بدّ أنه تلقى علوم القرآن والحديث والدين والتاريخ واللغة والأدب على أساطين العلماء في أيامه ، كما تلقى العلوم العسكرية النظريّة والعلمية على المبرزين في تلك العلوم .

كما مارس الأعمال الإدارية والسياسية والعسكرية عن كثب ، وشهد كيف تعالج أمور الدولة المختلفة وتعطى القرارات في محيط الخلفاء والأمراء والقادة على أعلى المستويات .

ومن الواضح أنه أصبح موضع ثقة والده ، فولاّه قيادة بعض الصوائف [٤] وأراد أن يجعله وليّ عهده بعد أخيه أيُّوب الذي توفيَ قبل أبيه سليمان بن عبد الملك [٥] ، وهذا دليل على أنه أصبح أبرز إخوته بعد وفاة أخيه أيوب ، وأنّ العلوم النظرية والعملية والتدريب العملي التي تعلّمها في أيّامه الأولى أثْرتْ كفاياته ، فأصبح قادراً على تحمل المسئوليات السياسيّة والإداريّة والعسكرية على حد سواء .

لقد كانت أيامه الأولى تعليماً وتدريباً وتجارب تشابه أيام أنداده من أبناء الخلفاء كمسلَمَة بن عبد الملك ، والعباس بن الوليد ابن عبد الملك إلى حد كبير [٦] .

جهاده

١ - في سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) جهّز سليمان بن عبد الملك الجيوش إلى (القُسْطَنْطِينِيَّة) ، واستعمل ابنه داوود على الصائفة ، فافتتح حصن (المرأة) [٧] .

والظاهر ان داوود كان قائد القوات السّاترة ، لحماية إعداد الجيوش وحشدها بالقرب من الحدود الإسلاميّة الروميّة ، ولحرمان الروم من التدخل المباشر أو غير المباشر في عرقلة الإعداد للجيوش تنظيماً وتجهيزاً وتسليحاً وتدابير إداريّة ، ولمنعهم من التأثير المباشر أو غير المباشر في حشدها استعداداً للحركة إلى (القسطنطينيَّة) ، لكي يتمّ الإعداد والحشد حسب الخطّة المرسومة .

وكانت منطقة إعداد الجيوش في (دابِق) [٨] ، وكانت خطة سليمان بن عبد الملك في ستر هذه المنطقة وحمايتها لاستكمال متطلبات الإعداد والحشد ، تتلخّص بإرسال الصوائف إلى بلاد الرُّوم شمالاً ، للسيطرة على الحصون التي تقع في منافذ جبال (طورس) الحصينة ، فعملت تلك الصّوائف عمل القوّات السّاترة بأسلوب (التعرّض) بالحركة ، لا بأسلوب (الدفاع) المُستَكِنّ ، وبذلك حقّقت هدفين في آن واحد : الأول حماية منطقة الإعداد والحشد ، والثاني السيطرة على الحصون الجبليّة التي تتحكم في الطرق التقربيّة المؤدّية إلى بلاد المسلمين . وقد نجحت هذه الخطّة نجاحاً كبيراً ، وهي خُطة حصيفة بلا مراء .

٢ - وفي سنة ثمان وتسعين هجريّة

لـم يَسـعَ لـتـولي القيـادة بَـل سَعـت القيـادة إليـه

(٧١٦ م) غزا داوود أرض الرُّوم ، ففتح حصن (المرأة) مما يلي (مَلَطيَة) [٩] مرة ثانية [١٠] كما افتتح حصنَ (الأجرب) [١١].

وقد تكرّر فتح حصن (المرأة) في هذه السنة ، إذ سبق ذكره في فتوح سنة سبع وتسعين هجرية ، مما يدل على أنّ الرُّوم استعادوه في شتاء سنة سبع وتسعين الهجرية ، لقلّة المدافعين عنه وهو الأرجح ، أو لانسحاب داوود منه بعد فتحه صيفاً ، واحتمال الانسحاب منه ضعيف ، لأن المسلمين لا ينسحبون من موقع فتحوه إلاّ لأسباب قاهرة .

وكان إعادة فتح هذين الحصنين في هذه السنة ، هو لتأمين خطوط مواصلات الجيوش الإسلامية الزاحفة لفتح (القسطنطينية) ، لأنها الشريان الرئيس لتقدم تلك الجيوش نحو هدفها ، وهي التي تصل قواعد المسلمين الأمامية بالقسطنطينيّة ، وعليها تتحرّك الإمدادات الإدارية والبشريّة من تلك القواعد الأمامية إلى الجيوش الزاحفة ، وكل قائد لا بد له من تأمين خطوط مواصلاته بالربايا في المناطق الجبلية والحصون .

والظاهر أنّ داوود استعاد حصن (المرأة) وفتح حصن (الأجرب) في طريقه إلى (القسطنطينيّة) ، فقد كان قائد أحد الأرتال المتقدمة لفتح عاصمة الرُّوم ، بصحبة عمه مُسلمة بن عبد الملك الذي تولى القيادة العامة سنة ثمان وتسعين الهجرية [١٢] .

٣ ـ وكان داوود بإمرة عمه مسلمة قائداً مرؤوساً في ملحمة حصار (القسطنطينية) ، وبقي معه من صيف سنة ثمان وتسعين الهجرية (٧١٦ م) حتى تمّ انسحاب مسلمة عن (القسطنطينية) بعد وفاة سليمان بن عبد الملك سنة تسع وتسعين الهجرية [١٣] (٧١٧م) وتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، فأمر عمر بالقفول منها بمن معه من المسلمين [١٤] ، بعد أن بقي المسلمون يحاصرون (القسطنطينية) ثلاثين شهراً [١٥] .

وكان سليمان بن عبد الملك قد أرسل ولده داوود مع مسلمة إلى (القسطنطينية) [١٦] وبقي معه إلى نهاية الحملة .

وهكذا أدى داوود واجبه قائداً فاتحاً ، ومحاصراً لعاصمة الرُّوم ، وكان في الحصار الرجل الثاني على الجيوش الإسلامية بعد عمه مسلمة بن عبد الملك [١٧] .

الإنسان

كان لسليمان بن عبد الملك أربعة عشر ذكراً [١٨] ، منهم أيوب أمُّهُ أُمّ أَبان بنت خالد ابن الحكم بن أبي العاص ، ويحيى وعبيد الله [١٩] أمهما عائشة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان ، ويزيد والقاسم وسعيد أُمهم أُم يزيد بنت عبيد الله بن يزيد بن معاوية بن أبي سُفيان ، وعبد الواحد وعبد العزيز أُمهما أم عمرو بنت عبد الله بن أَسِيد ، وداءود ومحمد وعمر وعبد الرحمن لأُمهات أولاد شتى ، والحارث لأم ولد ، وفي أيوب يقول جرير :

إنّ الإمام الذي تُرْجَى فَوَاضِلُـهُ
بعد الإمام ولِيّ العَهْدِ أَيُّـوب

وقد مات أَيّوب في حياة أبيه . وأما محمد فكان صاحب لهو وباطل ، أدرك الوليد بن يزيد . وأما عبد الواحد ، فولاّه مروان بن محمد المدينة وقتله صالح بن علي بن عبد الله ابن العبّاس وأخذ ماله ، وفيه يقول ابن هَرْمَة :

إذا قِيل مَن خَـيْر مَن يُرْتَجى
لِمُعْتَرِ فِهْرٍ ومُحْتَاجِهـا
ومَنْ يُعْجِلُ الخيلَ يوم الوَغى
بِإلْجامِها قَبْلَ إسْراجِها
أشارت نساءُ بَني مَالِـكٍ
إلَيْكَ بـه قَبْلَ أزواجِهـا

وأما عبد الرحمن فمات وهو شاب . وأما الحارث فكان من رجالهم جلداً وذكراً ، وأما يزيد فمات قبل تولي العباسيين [٢٠] .

وأما داوود ، فقد كان أبرز إخوته بعد أيوب ، لأنّ والده أراد أن يعهد إليه ليتولى الخلافة من بعده ، على الرغم من أنه ابن أمة ، وكانوا يكرهون ذلك ولا يولّون إلاّ ابن حُرّة [٢١] ، كما هو معروف في تقاليد بني أُميّة .

فقد ذكر رَجاء بن حَيْوة ، وكان من أعْبَدِ ، وهو رجل من أهل (الأُردن) كان موصوفاً بالحكمة والشدّة ، مرضياً في دينه وأمانته ، وكانت ملوك بني أُميّة تثق به لفضله وشرف نفسه [٢٢] ، أنّ سليمان بن عبد الملك مَرِض مرضاً شديداً ، فلما ثَقُل عهد في كتاب كتبه لبعض بنيه وهو غلام ولم يبلُغ ، فدخل عليه رجاء وقال : «ما تصنع يا أمير المؤمنين ! إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجل الصّالح» ، فقال سليمان : «أنا أستخير الله وأنظرُ فيه ، ولم أعزم عليه» ، فمكث يوماً أو يومين ثم خرّقه . ودعا رجاء فقال له : «ما ترى في داوود بن سليمان ؟» ، فقال رجاء : «هو غائب عنك بالقُسطنطينيّة ، ولا تدري أحيٌّ هو أم ميت» ، فقال : «فَمَنْ تَرى ؟» ، فأجابه رجاء : «رأيك يا أمير المؤمنين !» ، فقال سليمان : «كيف ترى في عمر بن عبد العزيز ؟» ، فقال : «أَعْلَمُهُ واللهِ خيراً فاضلاً مُسْلِماً» ، فقال سليمان : «وهو والله على ذلك ، ولئن وليّته ولم أُولّ أحداً سواه ، لتكونَنّ فتنة ولا يتركونه أبداً يلي عليهم إلاّ أن يجعل أحدَهم بعدَه» ، فأمر سليمان أن يجعل يزيد بن عبد الملك بعد عمر [٢٣] .

وقد كان الناس يقولون عن سليمان بن عبد الملك : «سليمان مفتاح الخير» [٢٤] ، فلا يمكن أن يفكّر في تولية داوود الخلافة من بعده وهو على فراش الموت ، إلاّ إذا وجد فيه مزايا وكفاية وعقلاً وديناً .

ولم يرد له ذكر في الخلافات والفتن التي تفجّرت في داخل بني أميّة ، ففرّقت صفوفهم وجعلتهم شيعاً ، فكان ذلك سبباً من أهم أسباب انتقال الخلافة منهم إلى بني العبّاس ، كما لم يرد له ذكر في تولي المناصب الإدارية

والقيادية ، منذ عودته من حصار (القُسطنطينيّة) حتى قُتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) يوم نهر (أبي فُطْرس)[٢٥]. فقد تتبّع عبد الله بن علي بن عبد الله بن العبّاس عم السفّاح أول خلفاء العباسيين – بني أميّة من أولاد الخلفاء وغيرهم ، فأخذهم ولم يفلت منهم إلاّ رضيع أو مَن هرب إلى الأندلس ، فقتلهم بنهر (أبي فُطرس) ، فلما فرغ منهم قال :

بني أُميّة قد أفنيتُ جمعَكمُ
فكيف لي منكمُ بالأول الماضي
يُطيِّب النَفسَ أنَّ النار تجمعكم
عُوِّضتُم من لظاها شَرَّ مُعتاضِ
مُنِيتُمُ لا أقالَ الله عثرتكم
بليثِ غاب إلى الأعداء نَهّاض
إن كان غَيْظي لفوتٍ منكمُ فلقد
مُنيتُ منكم بما ربيّ به راضٍ[٢٦]

فإذا صحّ أنّ عبد الله العباسي قال هذا الشعر أو لم يقله ، فالأمر سيّان في رأيي ، لأنه أفرط في إبادة بني أميّة ، لا فرق بين مُذنب وبريء ، فاحترق الأخضر واليابس ، وقُتل الصالح والطالح ، وخسر المسلمون خيرَ قادتهم وإدارييهم ورجال دولتهم دون مسوغ .

وعلى الرّغم من حمامات الدم التي لطّخ قسم من العباسيين أيديهم بها ، وعلى الرغم من الإرهاب الشنيع الذي مارسه هؤلاء دون شفقة ولا رحمة ، فقد ارتفعت أصوات شجاعة في رثاء قتلى بني أُميّة ، ولا جدال في أنّ الشعر الذي قيل في رثائهم كان شعراً صادقاً لأنه لا نوال يُرجى من بني أمية ولا زلفى ، بعد أن دالت دولتهم ، وأصبحوا أحاديثَ للناس وتاريخاً .

قال إبراهيم مولى قائد العَبلي يرثيهم :

أفاضَ المدامعَ قتلى كُدَى[٢٧]
وقتلى بكُثْوَة[٢٨] لم تُرْمَس
وقتلى بِوَجٍّ[٢٩] وباللاّبتَيْن[٣٠]
بيَثْرِبَ[٣١] هم خيرُ ما أنفُس
وبالزابيين[٣٢] نفوس ثَوتْ
وأخرى بنهر أبي فُطْرُس
أولئك قومٌ أناخت بهم
نوائب من زمنٍ متعس
إذا ركبوا زيّنوا المركبين
وإن جلسوا زينة المجلس
هم أضرعوني لريب الزَّمان
وهم ألصقوا الرُّغْمَ[٣٣] بالمعطَس
فما أنسَ لا أنسَ قتلاهم
ولا عاش بعدهمُ مَنْ نَسي[٣٤]

وقال :

أبكي على فِتْيَةٍ رُزِئْتُهمُ
ما إن لهم في الرجال من خَلَفِ
نهر أبي فُطْرُسَ محلهمُ
وصبّحوا الزابيين للتَلَفِ
أشكو إلى الله ما بليتُ به
منْ فَقْدِ تلك الوجوه والشَرَف[٣٥]

وقال :

بكيتُ وماذا يردّ البُكا
وقلّ البُكاء لقتلى كُدا
أُصيبوا معاً فتولّوا معاً
كذلك كانوا معاً في رَخا
بكت لهم الأرض من بعدهم
وناحت عليهم نجومُ السّما
وكانوا ضيائي فلما انقضى
زماني بقومي تولّى الضِيا[٣٦]

ولا يمكن أن يصدر مثل هذا الشّعر الصادق إلاّ في رثاء مَنْ ظُلِمَ ، لا في رثاء مَنْ ظَلَمَ ، وكان داوود ممن ظُلِمَ حقّاً ومعه من أنداده وآل بيته كثير ، إذ لم يشهد الاقتتال في الصراع على الملك بين الأمويين والعباسيين ، كما أنّ يوم نهر (أبي فطرس) كان بين قوتين غير متكافئتين : جماعة من بني أُميّة عزّل من السِّلاح ، وقوة مدججة بالسّلاح من بني العبّاس وجيشهم ، وأكثر الأمويين في تلك المنطقة كانوا ممن اعتزلوا الاقتتال .

وما هكذا كان العرب يقاتلون ، ولا بذلك نصّت تعاليم القتال في الإسلام .

وهذا الذي أوردته من شعر في الرثاء لقسم من الذين ظُلموا بغير حق من بني أميّة ، هو جزء يسير مما قاله شاعر واحد في رثاء هؤلاء المظلومين بعد أن أصبحوا رجالاً بلا غدٍ ولا سلطة ولا مال ، فما بالك بما قاله الشعراء الآخرون الذين رثوا المظلومين من بني أميّة ، وهم عدد ضخم من الشعراء ، عاش شعر بعضهم وطوت الأيام شعر الأكثرين ، لم يخشوا السُّلطة الغاشمة ، ولم يخافوا الوعيد والسجون والقتل والتّشريد ، بل عبّروا عن شعورهم بشجاعة وصدق وأمانة .

ولم يقتصرْ رثاء المظلومين من بني أُميّة على الشعراء وحدهم ، بل شمل غيرهم من الأدباء والعلماء وأفراد الشعب العربي ، وقد عبّر كل واحد منهم بطريقته وأسلوبه ، ولكن معظم هذا الرثاء دُمِّر كما دُمِّر بنو أُميّة وأُبيد كما أُبيدوا .

وهذا إن دلّ على شيء ، فإنما يدلّ على ما حاق بالأبرياء من بني أميّة من ظلم شنيع . ولعلّ داوود كان من جملة المظلومين ، فلم يحدثنا التاريخ أنه شارك في الاقتتال بقلبه أو بلسانه أو بسيفه ، فلماذا يقتل وترمى جثته في الطُّرقات ؟

لقد ذكرنا أنه بدأ حياته العملية في الجهاد سنة سبع وتسعين الهجرية (٧١٥ م) ، وأنه قتل سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) ، واعتيادياً تبدأ الحياة العملية لأبناء الخلفاء وأضرابهم في العشرين من سني حياتهم ، تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ، ومعنى ذلك أنه ولد سنة سبع وسبعين الهجريّة (٦٩٦ م) تقريباً ، أي أنه عاش خمساً وخمسين سنة قمريّة وثلاثاً وخمسين سنة شمسية .

القائد

١ – لم يشهد داوود غير غزوتين تمهيديتين لحصار (القُسطنطينية) الأولى : لستر إعداد الجيوش وحمايتها بأسلوب التعرض بالحركة لا بأسلوب الدفاع المُستَكِنّ ، والثانية : بقيادة جيش من جيوش المسلمين في مرحلة : مسير الاقتراب ، لتطهير الجيوب الثابتة للعدو ، وتأمين خطوط مواصلات الجيوش .

فلما انتهت مرحلة : مسير الاقتراب ، ووصلت جيوش المسلمين إلى (القسطنطينيّة) بدأت مرحلة حصار هذه المدينة ، فشهد الحصار منذ بدايته حتى نهايته ، وكان في هذه المرحلة السّاعد الأيمن لعمة مَسْلمة بن عبد الملك القائد العام للجيوش الإسلامية في مرحلة الحصار ، وكان الرجل الثاني في تسلسل القيادة بعد مسلمة ، فكانت هذه الغزوة هي الثالثة من غزواته قائداً .

٢ – وتدلّ الغزوة الأولى لداوود : غزوة

داود بن سليمان

فتح حصن (المرأة)، أنه كان قائداً (تعرّضياً)، فقد قام بواجب القِطَع السّاترة لجيوش المسلمين التي يجري إعدادها في القاعدة الأماميّة (دابق)، ولكن بأسلوب جديد يَتّخذ (التعرّض) بدلاً عن (الدفاع)، فيستر قوّات المسلمين ويحميها، ويحرم الروم من الحصول على المعلومات عن نيات المسلمين وتدابيرهم العسكرية، ويسيطر على الطرق التقربية التي تقود الرُّوم إلى قواعد المسلمين الأماميّة بفتح الحصن الروميّ الذي يسيطر على تلك الطرق.

ونستنتج من ذلك بعض مزايا داوود القيادية، فهو يتّسم بمبدأ (التعرض) من أهم مبادئ الحرب، ويؤدي واجبه بأسلوب تعبوي جديد، إذ المفروض أنّ واجب (السِتار) يتمّ بالدفاع أمام الموضع الأصلي بمسافة كافية تمنع العدو من التصدي لذلك الموضع بالنّار والنظر، ولكنه أدى هذا الواجب بالتعرض لا بالدفاع، وهذا أسلوب جديد في التعبئة. وهو قدير في ممارسة الحروب الجبليّة التي تتطلّب كفاية قيادية عالية، وهو قادر على التصدي للحصون المنيعة وقادر على فتحها.

وكل هذه القابليات من صفات القائد المتميز.

٣ ـ وتدل الغزوة الثانية لداوود: غزوة استعادة فتح حصن (المرأة)، وقيادة رَتل من أرتـال المسلمين الزّاحفـة لفتـح (القسطنطينيّة) في مرحلة مسير الاقتراب، أنّ داوود كان يتّسم بالحذر والحيطة، فيحمي جيشه في مسيرته بالربايا عند اجتياز المناطق الجبلية، وبقِطَع الحماية: الميمنة والميسرة والمؤخرة والمقدمة في حركته على المناطق المكشوفة، ويحمي طرق مواصلاته بالسيطرة على المراكز الحصينة التي تتحكّم في تلك الطرق، ويحسب لكل شيءٍ حسابه فلا يفسح المجال للعدو أن يهدد طـرق المواصلات بالغارات أو بحرب العصابات. والحـذر والحيطة وإدخـال أسوأ الاحتمالات في الحساب، من صفات القائد المتميز أيضاً.

٤ ـ وتدلّ الغزوة الثالثة لداوود: غزوة حصار (القسطنطينيّة)، أنه كان قائداً يتحلى بالضبط المتين، لأنّ العرب لا تصبر على الحصار المديد، كما لا تصبر على البرد الشديد، وقد عانى المحاصِرون ظروفاً قاسية: النار اليونانيّة، وقلّة الزاد، والخسائر الفادحة بالأرواح، وانهيار المعنويات، وكل هذه المعضلات تحتاج إلى قائد مسيطر قادر يحول دون تسرّب المقاتلين من ساحة المعركة إلى مكان آمن بعيد عن الأخطار.

كما أنّ ثباته العنيد مدة ثلاثين شهراً، يدل على تمتعه بالشجاعة والإقدام، وتحمله الأهوال والصعاب.

وقد دارت معارك طاحنة بين الطرفين، فتحمّل مسئولية القتال وصبر وصابر، مما يدل على إتقانه القضايا التعبويّة بكفاية وإتقان.

كما صادفته مشاكل إدارية قاسية، فعالج تلك المشاكل وتغلّب عليها، مما يدل على قابليته في حل المشاكل الإدارية.

وصادف مشاكل ترديّ المعنويات، فقاوم هذا التردي بأناة وصبر، مما يدل على تمتعه بالمعنويات العالية، فبقي مع الجيوش الإسلامية المحاصِرة، وكان بإمكانه الالتحاق بوالده في (دابِق) حيث الأمن والرخاء.

كما شارك في قيادة إنسحاب الجيوش الإسلامية من (القسطنطينية) إلى قواعد المسلمين، مما يدلّ على قابليته التعبويّة ومقدرته على تحمل المشاق.

ومن المعروف أنّ القائد المتميز هو الذي ينجح في قيادة معركة الإنسحاب، التي تعد بحق من أصعب صفحات القتال، لأنّ الانسحاب يؤثر في معنويات المنسحبين، كما يبذل العدو قصارى جهده ويزج بكل طاقاته في المطاردة محاولاً جعل الانسحاب الذي هو أحد صفحات القتال هزيمةً تحطّم المعنويات وتكبّد المنهزمين أفدح الخسائر.

لذلك كان نجاح القائد في السيطرة على الانسحاب، وإحباط محاولات العدو لقلبه إلى هزيمة، يحظى ولا يزال بأعظم التقدير، ويعتبر اختباراً صعباً للقيادة القادرة.

تلك هي صفات داءود القيادية التي يمكن استنتاجها في غزواته الثلاث، وهي بدون شك ثقيلة الوزن بالنسبة لجميع الموازين.

وبالإمكان إضافة صفة أخرى إلى تلك الصفات، وهي أنّ داوود كان راسخ العقيدة، فبقي ثلاثين شهراً في أحلك الظروف والأحوال ثابتاً لا يتزعزع، وأصحاب العقيدة الراسخة وحدهم يصبرون على البأساء والضراء وحين البأس، فهي وحدها تهون الصعاب وتذلّل العقبات.

كما أن أصحاب العقيدة الراسخة يجاهدون بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ويضحّون بهما وهما أغلى ما يحرص عليهما الإنسان، وغيرهم يضحّون بكل شيءٍ حرصاً على أموالهم وأنفسهم، وكل أمر في سبيل العقيدة الراسخة يهون.

ولقد كانت انتصارات المسلمين الأولين في أيام الفتح الإسلامي العظيم، انتصارات عقيدة لا مراء.

٦ ـ ونستطيع أن نتبيّن بجلاء أنّ مزيتين من مزايا القائد المتميز الثلاث، وهي: الطبع الموهوب، والعلم المكتسب، والتجربة العملية، باديتان للعيان بوضوح، وهما المزية الثانية والمزية الثالثة.

أما المزية الأولى، وهو الطبع الموهوب، فمن الصعب أن نتلمسها في شخصيته القيادية، فهو لم يتحمل مسئولية قيادة كبرى، ولم يمارس القيادة بعد عودته من (القسطنطينية)، ولا نعرف سبباً لتخليه عن ساحات القتال.

ولست أشك في أن والده أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك، لم يوله القيادة، لأنه ولده فحسب، بل لأنّ فيه مزايا قيادية معينة أهّلته لتولي القيادة، فقد كان لسليمان أربعة عشر ولداً من الذكور، لم يتسلم منهم منصب القيادة غير داوود، كما يدل ذلك على أنّ داوود له مَيْلٌ طبيعيّ لتولي قيادة الجيوش وله رغبة في القضايا العسكرية.

ولكن مزايا داوود القيادية وميله ورغبته في النهوض بأعبائها، ليس كل شيءٍ في إثبات تحليه بسجيّة: الطبع الموهوب، فالقادة الموهوبون تركوا بصماتهم على

الأحداث الكبرى فتوحاً باقية وانتصارات خالدة .

ولم يترك داوود مثل تلك الفتوح والانتصارات .

وإذا جعلنا قادة بني أُميّة طبقات ، وجعلنا أمثال قُتَيْبَة بن مُسْلم الباهِلِيّ ومحمد بن القاسم الثقفي من قادة المشرق الإسلامي ، وعُقْبَة بن نافع الفِهْرِي. وموسى بن نُصَيْر وطارق بن زياد من قادة المغرب العربي ، في قائمة الطبقة الأولى ، والعبّاس بن الوليد ابن عبد الملك ومعاوية بن أبي سفيان وعبد الملك بن مروان في قائمة الطبقة الثانية ، فإن داوود وأضرابه يصبح في قائمة الطبقة الثالثة .

وحسبه بهذا التقويم فخراً .

داوود في التاريخ

يذكر التاريخ لداوود عزوفه عن تولي الخلافة ، ونصحه الصادق الأمين للخلفاء وذوي السلطان .

ويذكر له أنه كان يعتبر المناصب العالية تكليفاً لا تشريفاً ، فلم يسع لتولي منصب القيادة ، بل سعى المنصب إليه ، فتولاّه بكفاياته لا بنسبه .

ويذكر له أنه لم يشارك في الفتن الداخلية ولا انضم إلى الطّامحين بالسلطة والحكم ، فاعتزل الفتن ، ولم يثرها بقلبه ولسانه وسيفه .

ويذكر له جهاده التمهيدي لفتح (القسطنطينية) ومشاركته المؤثّرة في حصارها ، وتحمله الأهوال صابراً محتسباً .

ويذكر له أنه قتل مظلوماً ، فاحترق بنار فتنة لم يكن من دعاتها .

يرحمه الله جزاء ما قدّم للمسلمين من جهد وجهاد .

(١) حصن المرأة : لا ذكر له في المصادر الجغرافيّة القديمة المتيسّرة ، والظاهر أنه حصن من حصون الرُّوم مما يلي (مَلَطْيَة) ، انظر الطبري (٥٤٥/٦) وابن الأثير (٣٦/٥) وابن خلدون (١٥٦/٣) .

(٢) أنظر التفاصيل في طبقات ابن سعد (٢٢٣/٥) وتهذيب الأسماء واللغات (٢٠٩/١) وجمهرة أنساب العرب (١٠٣-١٠٥) وفوات الوفيات (٣١/٢) وأنظر تهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

(٣) العيون والحدائق (٣٤) وانظر تهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

(٤) الصوائف : جمع الصَّائفة ، وهي الغزوة التي تخرج صيفاً .

(٥) تهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

(٦) انظر سيرة مَسْلَمة بن عبد الملك وسيرة العبّاس ابن الوليد بن عبد الملك .

(٧) الطبري (٥٢٣/٦) وابن الأثير (٢٠/٥) وابن خلدون (١٥٥/٣) .

(٨) دابق : قرية بقرب مدينة (حَلَب) ، وهذه القرية من أعمال (عزاز) ، بينها وبين (حلب) أربعة فراسخ ، عندها مرج معشب ، كان ينزله بنو مروان إذا غزوا الصّائفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣/٤) .

(٩) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم أرض الشام شمالاً ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥٠/٨) وتقويم البلدان (٣٨٤) والمسالك والممالك للاصطخري (٤٦) .

(١٠) الطبري (٥٤٥/٦) وابن الأثير (٣٦/٥) وابن خلدون (١٥٦/٣) والنجوم الزاهرة (٢٣٦/١) وتهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

(١١) تهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) ، ولا ذكر لحصن الأجرب في المصادر الجغرافية القديمة ومن المحتمل أن يكون حصناً صغيراً في منطقة (ملطية) بالقرب من حصن المرأة .

(١٢) الطبري (٥٣٠/٦) وابن الأثير (٢٧/٥) والبداية والنهاية (١٧٤/٩) وأبو الفدا (٢٠٠/١) والعبر (١١٦/١) وابن خلدون (١٥٥/٣) ومختصر تاريخ الدول لابن العبري (١١٤) .

(١٣) الطبري (٥٤٦/٦) وابن الأثير (٣٧/٥) والعبر (١١٨/١) والمسعودي (١٨٢/٣) وشذرات الذهب (١١٦/١) والعيون والحدائق (٣٣) والتنبيه والإشراف (٢٧٥) .

(١٤) الطبري (٥٥٣/٦) وانظر ابن الأثير (٤٣/٥) والعيون والحدائق (٣٩) وسيرة عمر بن عبد العزيز (٣٢) والمعارف (٣٦٠) والبداية والنهاية (٣٢٨/٩) وتاريخ خليفة بن خياط (٣٢٦/١) .

(١٥) البدء والتاريخ (٤٤/٦) .

(١٦) العيون والحدائق (٣٨) وانظر الطبري (٥٥٠/٦) وابن الأثير (٣٩/٥) وتهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

(١٧) انظر حصار القسطنطينية في سيرة : مسلمة بن عبد الملك .

(١٨) العيون والحدائق (٣٤) .

(١٩) العيون والحدائق (٣٤) : عبد الله .

(٢٠) العيون والحدائق (٣٤-٣٥) وانظر جمهرة أنساب العرب (٩٠-٩١) .

(٢١) تهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) .

(٢٢) العيون والحدائق (٣٨) والبداية والنهاية (١٨١/٩-١٨٢) .

(٢٣) الطبري (٥٥٠/٦) وابن الأثير (٣٩/٥) والعيون والحدائق (٣٨) وانظر تهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) وابن خلدون (١٦١/٣) .

(٢٤) الطبري (٥٤٦/٦) وابن الأثير (٣٧/٥) والعيون والحدائق (١٧) .

(٢٥) جمهرة أنساب العرب (٩١) وتهذيب ابن عساكر (٢٠٣/٣) . ونهر أبي فطرس : موضع قرب مدينة (الرّملة) من أرض فلسطين ، على اثني عشر ميلاً من (الرّملة) في سمت الشمال نهر أبي فطرس ، ومخرجه من أعين في الجبل المتصل بمدينة (نابلس) وينصبّ في البحر بين مدينتي (أرسوف) و (يافا) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٣٣/٨) .

(٢٦) ابن الأثير (٤٣٠/٥-٤٣١) وانظر معجم البلدان (٣٣٣/٨) .

(٢٧) كدى : وردت في معجم البلدان : كُدى ، ومفتوحة الكاف هي : كداء ، موضع بمكة المكرمة عند (طُوى) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٠/٧-٢٢٣) .

(٢٨) كثوة : ورد ذكرها في معجم البلدان (٢١٨/٧) بدون أن يذكر مكانها .

(٢٩) وَج : هي مدينة الطّائف في الحجاز ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٩٩/٨-٤٠٠) .

(٣٠) اللاّبتان : تثنية (لابة) وهي الحرَّة ، وجمعها : لابٌ . وفي الحديث أنّ النبي صلّى الله عليه وسلّم حرّم ما بين لابَتَيْها : يعني المدينة المنوّرة ، لأنها بين الحرَّتين . واللاّبة لغةً : الأرض التي ألبستها الحجارة السُّود ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٠٨/٧-٣٠٩) .

(٣١) يثرب : مدينة رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، أنظر التفاصيل في معجم البلدان (٤٩٨/٨-٤٩٩) ، وهي المدينة التي فيها مسجد النبي صلّى الله عليه وسلّم وقبره الشّريف .

(٣٢) الزّاب : نهر معروف في العراق الشمالي الشرقي ، وهما زابان : الزّاب الأعلى ، الزاب الأسفل ، وربما قيل لكل واحد من نهري الزاب : زابي ، والتثنية : زابيان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٣٦٣/٤-٣٦٤) والمشترك وضعاً والمفترق صقعاً (٢٢٩-٢٣٠) .

(٣٣) الرُّغم : الكره والذل والهوان ، يقال : فعله على رغمه .

(٣٤) معجم البلدان (٣٠٩/٧) و (٣٣٣/٨) .

(٣٥) معجم البلدان (٣٣٤/٨) .

(٣٦) معجم البلدان (٢٢٣/٧) .

المجلة العربية

مجلة شهرية ثقافية مصورة
تصدر عن المملكة العربية السعودية

السنة الثالثة

العدد ١

